زهير بن أبي سلمى داعية السَّلام منفّر الحرب

(قراءة في معلقته :الثنائيات والسيمياء)

أ.د أحمد مقبل محمد المنصوري

أستاذ الأدب القديم ـ جامعة صنعاء وكلية الدراسات دبي

توطئة:

يمثل زهير بن أبي سلمى في العصر الجاهلي أنموذجا فريدا للإنسان الحكيم ، ورمزا مميزا للإنسان المجرب الخبير بأمور الحياة ومشكلاتها الكبرى .

وعلى الرغم من أن العصر الجاهلي وسم بالطيش والسفه وقلة الصبر والحلم ، وهذا ماكان ماثلا في إشعالهم للحروب لأتفه الأسباب ، واستمرارها لعشرات السنين ؛كما حدث مع حرب البسوس بين بكر وتغلب وبرز فيها المهلهل بن ربيعة بعد مقتل أخيه كلب ، وحرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان وظهر فيها عنترة العبسي ، واستمرت هذه الأخيرة كما قيل حوالى أربعين سنة وهي التي شهدها شاعرنا زهير بن أبي سلمى ، وكانت قد أكلت أمامها وخلفها كل شيء ولم تبق ولم تذر ، وأنهكت أصحابها ، وأوشكت أن تنهي القبيلتين ، ولولا تدخّل الحكماء من أمثال الهرم بن سنان والحارث بن عوف لكانتا قد فنيتا تماما!!

عاش زهير أواخر العصر الجاهلي ؛ بما يعني أن جملة من القيم الخلقية الكبرى كانت قد تشكلت وتبلورت إيذانا بعد ذلك بمقدم هادٍ للبشرية سيدنا محمد بن عبدالله ، وكان زهير هو الأنموذج الحيّ لتلك المدة الزمنية ، والشاهد على رقي بعض القيم التي تجسدّت في عصرٍ كان أغلبه يعيش على الطيش والسفه .

بمعنى أن العصر الجاهلي على الرغم من كونه قد اتسم بتلك الصفات التي ارتبطت به ، وهي بالفعل كانت ملازمة له إلاّ أن ذلك لايعني انعدام أنموجاتٍ كبرى وجدت في هذا العصر ، وكانت حارسة للقيم الكبرى المضادة : الحلم الصبر العدل الكرم الجاعة الإيثار .

وإن يكن الشعر الجاهلي قد طرح علينا دلائل لقيم الكرم والشجاعة وحفظ العهد ونجدة المستنجد ونصرةالمظلوم -فإن زهيرا قد طرح لنا رسالته الكبرى والمميزة في وقتٍ كانت تصهل فيه الخيول وتتصارع الأسنة والرماح ، وقد تمكن الحقد والعداء من نفوس القبيلتين المتقاتلتين أيما تمكن ، واستمر ولم يجعل أية مساحة طيلة السنين للتقارب أو التسامح ؛ تلك الرسالة الخالدة هي رسالة السَّلام ، وجعل معلقته أشبه ماتكون برسالة خالدة للإنسانية في كل زمان ومكان؛ رسالة تنفر من الحرب وويلاتها ، وتتجه بعقليتها ومنطقيتها وحكمتها نحو السلام وتضع حدا للحرب ، ومايترتب عليها من الويلات والشؤم والخراب واليباب والدمار !!

معلقة زهير والسلام :

أنشا زهير معلقته التي تصل حد الستين بيتا وتتجاوزه ببيتين[1]، في مدح رجلين عظيمين هما : (الهرم بن سنان والحارث بن عوف) والسبب في مدحهما يعود إلى مواقفهما العظيمة في توسطهما بالخير وتحملهما أعباء الحرب كافة بين القبيلتين :عبس وذبيان ، ودفعا من ممتلكاتهما الخاصة تعويضات للجانبين المتقاتلين عن قناعة وحرص على أن تكف القبيلتان عن الحرب وتجنحا إلى السِّلم ، وبعد جهد فإن محاولاتهما أثمرت الخير ،وبسببهما جنحت القبيلتان إلى السلم ، وانطفأت بينهما نيران الحرب المتأججة الضروس ، وكان السّلم - بالنسبة إلى هاتين القبيلتين - أشبه بحلم بعيد المنال ، وعسير التحقق لتمكن الأضغان والحقد من قلوبهم ونفوسهم ، لكن حكمة الرجلين استطاعت أن تنزع فتيل الحرب المشتعل وأن تطفئه ، فتحقق الحلم العزيز المنال ، وكان زهير يشهد دور الرجلين فانتشى لذلك ،وبناء على ذلك الانتشاء صاغ دستوره الخالد في تصوير بشاعة الحرب وفداحتها وعلو كفة السلم وارتفاع منزلتها ، وزهير لم يكن -بشهادة ثاني الخلفاء- لايمدح الرجل إلا بما فيه ، ولايعاظل في الكلام ، ولذلك فإن ماطرحه في المعلقة منشؤه الشعور الصادق الذي لايشوبه ظن بحقيقة ما جاش في صدره.

المعلقة:

على طريقة القصائد الجاهلية الطويلة تأتي معلقة زهير بن أبي سلمى متعددة في موضوعاتها مابين : أطلال ورحلة الظعائن ومدح رجلي السلم :الهرم والحارث ، ووصف الحرب وويلاتها والانتهاء بالحكم المنطقية الصادقة. ولكن – وهذا احتراز مهم – لايعني هذا التعدد ضياع الفكرة الأصل والهاجس المسيطر عليه ، هاجس الحرب والسلم ؛ هاجس الموت والحياة ، هاجس الواقع والمستقبل، هاجس الألم والأمل؛ هاجس العاطفة والعقل ؛ولأجل ذلك فقد كانت فكرة الموضوع الرئيس (امتداح الرجلين المفضي أصلا لامتداح فكرة السلم على الحرب) هي الفكرة التي كانت تلوح عبر كل موضوعات المعلقة المتعددة.وهذه الثنائيات المتوزعة على أطراف المعلقة جميعا تغذي الفكرة الرئيسة وتعضدها وتفضي إليها !!

ستنهج القراءة للمعلقة عبر لوحاتها لعبة تجريب الثنائيات ؛ أي من خلال تتبع ثنائيات صغرى وعلاقاتها ببعضها من خلال تواشج مكوناتها اللغوية، لتقود أخيرا إلى ثنائية كبرى هي أيضا من معطى اللغة ذاتها ،الثنائية التي شكلت بؤرة النص وجوهره ، ورحيقه وجوهره ، ومنها استمدت بقية الثنائيات الصغرى في إطار لوحاتها جوهر بقائها ، ولو بدت للنظرة العجلى في مظنة التباعد ، وليس ذلك بكائن لعين الناظر المتوسم -بلغة زهير نفسه- ، علما أن الثنائية اللغوية وماتخلقه من الدلالة هي همّ القراءة الأول لكونه مرتبطا بحدود عنوان بحث أراد أن يثبت –من خلال النص وسيميائته- رسالة كبرى هي رسالة المعلّقة(السلم) بعيدا عن الخوض، مثلا ، في الإيغال مع بنى أخرى كبنية الصوت ومكونات البنية الصرفية أيضا. وهذا ماسيجعل البحث عن تلك الثنائيات وعلاقاتها المتضادة يتوسل البحث عن سيميائية اللغة ويتكىء عليها !!

القراءة:

اللوحة الطللية:

[1] تنظر المعلقة بأبياتها ال 62 في: شرح المعلقات السبع ، الزوزني ص 109 وما بعدها.

أمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَـةٌ لَمْ تَكَلَّـمِ
بِحَـوْمَانَةِ الـدُّرَّاجِ فَالمُتَثَلَّـمِ
وَدَارٌ لَهَـا بِالرَّقْمَتَيْـنِ كَأَنَّـهَـا
مَرَاجِيْعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَـمِ
بِهَا العِيْنُ وَالأَرْآمُ يَمْشِينَ خِلْفَـةً
وَأَطْلاؤُهَا يَنْـهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً
فَـلأيَاً عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّـمِ
أَثَـافِيَ سُفْعاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَـلِ
وَنُـؤْياً كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّـمِ
فَلَـمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَـا
أَلاَ أَنْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَـمِ

اللوحة تتخذ مساحة لها محددة الأطر ، ومكتملة اكتمالا مؤقتا في بوتقة النص الكلي فيما بعد ، واكتمالها بحسب مساحتها اللغوية والدلالية أيضا يشي بوقوف الشاعر الذي جسده الضمير في (وقفتُ بها) والمعضد ب(عرفتُ) أمام (دمنة أم أوفى ودارها) وبحسب ماتشي به اللوحة من بؤر يمكن رصدها كالآتي:

<u>الشاعر</u> وأفعاله:(وقفتُ بها -عرفتُ الدار-قلتُ) تمثل الحركة -التأمل والتفكر(بوصفه حركة ذهنية أيضا)-الكلام (التحية) مقابل **<u>الأطلال</u>** التي تمثل السكون الصمت الجماد بقاء الأثر (لم تكلم – أثافي نؤي-كالوشم) والعلاقة بينهما علاقة ضد ؛ فالأطلال تمثل السلب السكون الصمت الموت اليباب ، والشاعر في علاقته بها يحاول أن يبث فيها الحركة الصوت الحياة بالتحية والسلام وباستنكار عجمتها وصمتها!! وهو نفسه يمثل الحركة الكلام الحياة وقفتُ عرفتُ قلتُ ، مقابل الدمنةالصمت والموت!!

وحركة الحياة تتجه صوب اليباب والموت ، فهي المحرك له والسائرة باتجاهه وليس العكس ؛ بمعنى أن الحياة الحركة الكلام تتجه بإيجابية لتمنح خصائصها للجمود والسكون بغية أن تبعث فيه نسمة الحياة. الأطلال تمثل السلب الموت ،والشاعر يمثل الإيجاب الحياة ، وحركة الحياة هي الأقوى لكونها هي التي تحاول بعث خصائصها في الضد الموت ومحاولة إزاحة خصائص السكون الجمود فيه !!

وعنصر ثالث يبرز هو عنصر **<u>الحيوان</u>** ، وأفعاله تشي بالانتماء إلى طرف الحياة ومقاومة اليباب والموت ؛ إذ فعلها (يمشين خلفة – أطلاؤها ينهضن) حققت الحركة والازدحام والحياة!!

وبالعد الرياضي يكون طرف الحياة (الشاعر+الحيوان) وطرف الموت (الطلل) ، وكلاهما يحلان في الطلل ، ويقاومان فكرة الصمت و الموت. ومن ثم توشك الحياة أن تنتصر على الموت

هنا ؛ فهي الأكثر إيجابية وسيطرة والموت أكثر سلبية وفيما الحياة تبسط اتساعها تتضاءل وتنزوي مساحة الصمت الجمود الموت.

وبالمقارنة الأفقية بمنتوج الطلل عموما –بما تسمح به حركة السيمياء - نجد هنا حلول البهجة آخر اللوحة ؛ فالنهاية للفرحة بعد مزاحمة الشؤم بغرابة دار أم أوفى ، أوقل النهاية للأمل والتفاؤل (في الشاعر طرف الحياة) مقابل الشؤم(عجمة الأطلال) وهو أمر يدعو للتساؤل :كيف نجد الشاعر (بوصفه مجسدا لغويا في النص لا استدعاءه من الخارج) مبتهجا حبورا وسواه في حيز الطلل ذاتها -كامريء القيس مثلا - يثقله الحزن والبكاء والدموع والانهيار أمام الاطلال؟

ولا يخفف من حدة تساؤل كهذا سوى نظرة المتوسّم إلى اللوحة في سياق الثنائية الكبرى المهيمنة: (**الحرب والسلم**) الثنائيات هنا :الموت الصمت اليباب تغيّر المعالم المسيطرة زمنا المنتمية إلى الطلل تتضاءل شيئا فشيئا أمام الحياة الحركة الكلام البهجة التحية والدعاء المنتمية إلى عالم الإنسان والحيوان . والانتصار المؤقت في اللوحة لطرف الحياة على الموت يتجاوب صداه مع الثنائية الكبرى ؛ ولتكن النتيجة هنا أن الصمت والسكون واليباب ينتمى دلاليا إلى حقل الحرب ، وأن الحركة والحياة والبهجة تنتمي إلى حقل السلم ، ويكون التضاد/الصراع قد منح السلم مزاحمة منتصرة على الحرب تطمح أن يبددها جملة وتفصيلا.ولكن حسب الأطلال أنها قدمت في لعبة الثنائيات الشرارة الأولى لانتصار الحياة/السلم على الموت/الحرب.ولأن الواقف الشاعر ثم الحيوان العين والظباء قد جاءتا بعد زمن إلى أطلال ميتة لا حياة فيها ، وحاولا تغيير معالمها وبعث الحياة فيها من جديد ، فذلك يتجاوب دلاليا مع مجيء السلم إلى صحراء الحرب التي كانت قد دمرت كل شيء ، ولكنه بعث فيها الحياة والأمل من جديد. النهاية في لوحةالطلل للأمل والبهجة (الحياة/السلم)وإسدل الستار على الشؤم والألم (الموت/الحرب)!!

لوحة الظعائن:

تَبَصَّرْ خَلِيْلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِـنٍ
تَحَمَّلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُـمِ
جَعَلْنَ القَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزْنَـهُ
وَكَـمْ بِالقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْـرِمِ
عَلَوْنَ بِأَنْمَـاطٍ عِتَاقٍ وكِلَّـةٍ
وِرَادٍ حَوَاشِيْهَـا مُشَاكِهَةُ الـدَّمِ
وَوَرَّكْنَ فِي السُّوبَانِ يَعْلُوْنَ مَتْنَـهُ
عَلَيْهِـنَّ دَلُّ النَّـاعِمِ المُتَنَعِّـمِ
بَكَرْنَ بُكُورًا وَاسْتَحْرَنَ بِسُحْـرَةٍ
فَهُنَّ وَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَـمِ
وَفِيْهِـنَّ مَلْهَـىً لِلَّطِيْفِ وَمَنْظَرٌ
أَنِيْـقٌ لِعَيْـنِ النَّـاظِرِ المُتَوَسِّـمِ
كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ فِي كُلِّ مَنْـزِلٍ

نَـزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ
فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقاً جِمَامُـهُ
وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّـمِ

في رحلة الظعائن -وهن النساء المتحملات على الهوادج – تكون قلوب الشعراء مكلومة متألمة لأنه الفراق ومغادرة المكان ، لكن زهيرا هنا يبدو على غير العادة !!

اللوحة تبدأ بمراقبة ومتابعة الذات -بوصفها الآن تقوم بدور السرد- لتلك الرحلة ؛ حيث الظعائن تحملن على النوق من فوق جرثم وهو مكان في بني أسد ، وتركن وراءهن جبل القنان ومن فيه من المتحاربين المتقاتلين من أبناء عبس وذبيان ، واتجهن مسرعات نحو مكان آخر تتوافر فيه حياة الدعة والأمن والاستقرار ، فوصلن إلى الماء ووضعن عصي الترحال!!

حركة الثنائيات هنا في اللوحة تتجلى في الآتي:

جبل القنان يمثل المكان المرتحل عنه ؛ حيث يمثل الدماء ويمثل الحرب والماضي ، يقابله الماء الأزرق الذي يمثل المكان المرتحل إليه ، يمثل المستقبل الأمل السلام !!

وحركة الظعائن من حيث الجهات أن (جبل القنان) جعلته خلفها وتجاوزته ، والماء الأزرق الصافي أمامها وسارت باتجاهه.

الجبل يمثل السكون الموت و الماء يمثل الحركة والصفاء ، الجبل الماضي والماء المستقبل ، الجبل خلف الظعائن والماء أمامها ، الجبل المتروك والماء المأمول والمستقر ، الجبل الشؤم ،والماء التفاؤل

الجبل الألم والماء الأمل .

والنهاية كانت بالانتصار للأمل للحياة للاستقرار على الشؤم والألم والموت !! وعلينا أن نرى لماذا كانت الكلل التي تخفي جمال الظعائن الأنيق عن الناظرين سوى أنظار المتوسمين مشابهة في حمرتها للدم؟ ولماذا فكرة الدم ؟ والجواب مستوحى من محاضرات[2] لأستاذنا د.وهب رومية أن ذلك لم يكن عبثا وإنما هو مقصود ؛ فالذي كان يخفي جمال السلم المأمول عن معظم ابناء القبيلتين باستثناء الحكماء -وهم قلة- هو الدماء وأشباح الحرب التي أعمتهم عن توسم الجمال الخفي في السلم ولم يره سوى الهرم والحارث بن عوف !!

رحلة الظعائن تتواشج في دلالتها الرامزة مع رحلة القبيلتين إلى السلم ، وتركهما للحرب وويلاتها ، ومن ثم فإن الطرف الأول من الثنائية في هذه اللوحة (جبل القنان ومن حل فيه) ينتمي إلى طرف الثائية الكبرى (الحرب) وطرف الثنائية الثاني في اللوحة ، الضد (الماء وزرقة مياهه) ينتمي قطعا إلى طرف الثنائية الكبرى (السلم) والانتصار ثانية هنا – كلوحة الأطلال أولاً – يكون للسلم ؛ حيث الظعائن اتجهت نحوه (الماء الصافي /السلم) بوصفه الاستقرار الأمن الأمل التفاؤل المستقبل. ومن هنا غابت الدموع عن عين زهير في وصف رحلة الظعائن ، بل كان

[2] حين كان في جامعة صنعاء يحاضر الأدب الجاهلي ، وكنا طلبته حينها في بداية التسعينيات.واستشهدت هنا برؤيته لعمق دلالتها ولشدة انتباهه في التقاطها من حيز الجملة في سياق النص/الظعائن.

شديد الإعجاب بها وكانت نفسيته مطمئنة ، وأكبر دليل على اطمئنانه (تصوير فتات الصوف بحب الفنا الأحمر الصغير الذي لم يحطم وتصوير ألوان الكلل وحواشيها) لأنه لا يريد من هذا التقليد المستقر في الوجدان سوى رصد إيحاءاته المتجاوبة مع هاجسه الأكبر ، وكل شاعر بإمكانه أن يوظف هذا التقليد – وكذا الأطلال - دون أن يخل بمقوماته ، وزهير هنا -وبغمضة عين - استطاع أن يعطي التقليد حقه ، ويوظفه التوظيف البارع الدال على عبقرية زهير الذي وصف عند بعضهم أنه من أحسن شعراء الجاهلية ، من طائفة عبيد الشعر !!

لوحة السلم والحرب:

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الذِّي طَافَ حَوْلَهُ
رِجَـالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُـمِ
يَمِينـاً لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَـا
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيْلٍ وَمُبْـرَمِ
تَدَارَكْتُـمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَـا
تَفَـانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَـهُمْ عِطْرَ مَنْشَـمِ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعـاً
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ القَوْلِ نَسْلَـمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِـنٍ
بَعِيـدَيْنِ فِيْهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَـمِ
عَظِيمَيْـنِ فِي عُلْيَا مَعَدٍّ هُدِيْتُمَـا
وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزاً مِنَ المَجْدِ يَعْظُـمِ

هذه اللوحة تشكل صلب الهاجس الأكبر وصلب الثنائية الكبرى المهيمنة على أطراف المعلقة ، وفيها يمدح رجلي السلم :الحارث بن عوف والهرم بن سنان، وتكتسب اللغة هنا طابع الوضوح والتقريرية في رصد صنيع هذين الرجلين اللذين كانا رمز السلم رمز الخير رمز الأمل ؛ لأنهما تداركا بالسلم مابقي من القبيلتين اللتين كانتا بسبب الحرب قد أوشكتا على الفناء.

اللوحة تجسد مساحة السلم وتزيح الحرب ولم يتبق منه أمام السلم سوى أشلاء باهتة تعكسها الصورة بانحيازها للماضي البعيد حيث السمعة السيئة والتي لن تتكرر (بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم).

ويمضي في منح (الحرب /الشؤم) حقها من الوصف والتصوير:-

وَمَا الحَـرْبُ إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُـمُ
وَمَا هُـوَ عَنْهَا بِالحَـدِيثِ المُرَجَّـمِ
مَتَـى تَبْعَثُـوهَا تَبْعَـثُوهَا ذَمِيْمَـةً
وَتَضْـرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُـوهَا فَتَضْـرَمِ

فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا
وَتَلْقَحْ كِشَـافاً ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِـمِ
فَتُنْتِـجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُـمْ
كَأَحْمَـرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِـعْ فَتَفْطِـمِ
فَتُغْلِلْ لَكُمْ مَا لاَ تُغِلُّ لأَهْلِهَا
قُـرَىً بِالْعِـرَاقِ مِنْ قَفِيْزٍ وَدِرْهَـمِ

اللوحة هنا في طرفها(الحرب)حاضرة على مستوى اللفظ والمساحة الورقية لكنه حضور الطرد لها على مستوى الفكر ؛ أي تنفي نفسها بنفسها ؛إنه حضور النفي ، ونفي حضور ها يحقق حضور المنفي ؛ بمعنى أن حضور اللغة المكثفة هنا هي في سبيل تغييب الحرب عن الذهن مقابل حضور الغائب المستدعى السّلم.

فالحرب دمار وشر ولا تغل سوى الشر ، وذلك الغل الشر يفوق في حجمه ما تغله أرض العراق من الخير ، وتعرك الناس كعرك الرحى ولاتبقي ولا تذر ، ومتى مابعثت فإنها تشتعل اشتعال النار الملتهبة .

الثنائيات هنا :الحرب الحاضر المتجلي لغويا مقابل السلم الأكثر سيطرة مع غيابه المتجلي ذهنيا.

العقل هنا ينتصر أيضا على العاطفة، فوصف الحرب والوقوف على ويلاتها هو صوت العقل في حين أن صوت العاطفة المرافق في الماضي هو صوت الانفعال والانقياد للحرب لكنه في حكم الماضي الغائب المزاح .

<u>لوحة الحكمة/العقل:</u>

بعد انتصار السلم على الحرب واطمئنان نفس زهير بثباته أنهى معلقة بحديث الحكيم الفيلسوف الخبير بالحياة وشؤونها ، فقدّم طائفة من حكم العقل والمنطق تمس الحياة والنفس البشرية ،وتكشف عن رؤيته التي فقهها بعد خبرته الطويلة في الحياة ، وانتماؤها قطعا يكون لمنطق العقل ، وانتصاره على منطق العاطفة:

سَئِمْـتُ تَكَالِيْفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ
ثَمَانِيـنَ حَـوْلاً لا أَبَا لَكَ يَسْـأَمِ
وأَعْلَـمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَـهُ
وَلكِنَّنِـي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَـمِ
رأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ
تُمِـتْهُ وَمَنْ تُخْطِىء يُعَمَّـرْ فَيَهْـرَمِ
وَمَنْ لَمْ يُصَـانِعْ فِي أُمُـورٍ كَثِيـرَةٍ
يُضَـرَّسْ بِأَنْيَـابٍ وَيُوْطَأ بِمَنْسِـمِ

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْروفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِـرْهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْـمَ يُشْتَـمِ
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْـلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِـهِ
عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْـهُ وَيُذْمَـمِ
وَمَنْ يُوْفِ لا يُذْمَمْ وَمَنْ يُهْدَ قَلْبُـهُ
إِلَـى مُطْمَئِـنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَـمِ
وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَـهُ
وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّـمِ
وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِـهِ
يَكُـنْ حَمْـدُهُ ذَماً عَلَيْهِ وَيَنْـدَمِ
وَمَنْ يَعْصِ أَطْـرَافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّـهُ
يُطِيـعُ العَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْـذَمِ
وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِـهِ
يُهَـدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمْ النَّاسَ يُظْلَـمِ
وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُواً صَدِيقَـهُ
وَمَنْ لَم يُكَـرِّمْ نَفْسَـهُ لَم يُكَـرَّمِ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مَنْ خَلِيقَـةٍ
وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَـمِ
وَكَاءٍ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِـبٍ
زِيَـادَتُهُ أَو نَقْصُـهُ فِـي التَّكَلُّـمِ
لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُـؤَادُهُ
فَلَمْ يَبْـقَ إَلا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالـدَّمِ
وَإَنَّ سَفَاهَ الشَّـيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ
وَإِنَّ الفَتَـى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُـمِ

والخلاصة:

أن الشاعر الجاهلي الحكيم(زهير بن أبي سلمى) من خلال هذا النص الأشهر في نتاجه الشعري ، قدم رسالته الإنسانية الخالدة على النحو الذي رأينا ؛ فالنص بدأ بالوقوف على الأطلال وتواشجته ثنائيتان هم الموت واليباب والعجمة والصمت من جهة والحياة والحركة والصوت من جهة الضد المقابل ، وكانت الغلبة لقيمة الحياة ، وكانت هذه الثنائية في حدود مساحتها تغذي الثنائية الكبرى المهيمنة من حيث أن قيمة السلم هي المنتصرة على قيمة الحرب ، وحين الانتقال إلى اللوحة الثانية لوحة الظعائن وجدنا أيضا ثنائية جبل القنان بما هو مكان القتال والدماء والفتنة وهو ماضي الحرب الكئيب من جهة ، والماء بوصفه الأمل والمستقبل والاستقرار وبوصفه السلم المأمول وهو محط رحلة الظعائن ومنتهاها من جهة ثانية، وكانت الغلبة له للماء ايقونة المستقبل الحياة والأمل على ذلك الماضي الموت والألم، وتكون اللوحة قد قدمت نصرا آخر للسلم على الحرب بوصف الجبل وعالمه ينتمي إلى الحرب ، والماء وعالمه ينتمي إلى السلم.

وحين ثبتت حقيقة أن السلم يجتاح أشباح الحرب وهو القناعة التي تحققت بعد طول عناء ، فإن لوحة وصف الحرب ولوحة الحكمة كانت من نصيب العقل حيث الحديث دار حول رمزي قيمة السلم (الحارث والهرم) واستدعى بالضرورة الحديث المنطقي عن الحرب وويلاتها وبشاعتها ومساوئها في غياب مطلق للعاطفة بوصفها الثنائية المضادة للعقل في كونها سر شطحات الماضي ولكونه سر منطقية الواقع والحياة والمستقبل ، وهاتان الثنائيتان تعززان الثنائية الكبرى بوصف العقل المنتصر ينتمي إلى السلم ، وبوصف العاطفة المنطفئة الغائبة تنتمي إلى الحرب.و خاتمة النص حكم متوالية ، كانت من نصيب العقل ؛ حيث الحكمة الخالدة التي لاتقبل التغير هي من صنيع العقل ومن نتاجه.

السلم إذن رسالة النص الكبرى ورسالة الحياة وتغلبه على الحرب هو تغلب الحقيقة على الزيف ، وتغلب العقل على الجنون ،وتغلب الحياة على الموت!!

وإن يكن البحث في الثنائيات من حيث علاقاتها وتضاداتها وتواشجها بنائيا لتغذية ثنائية كبرى هي الحرب والسلم يشي بالنهج البنيوي ، فإن الاتجاه صوب الدلالة ورمزيتها في إطار الثنائية ذاتها يشي بالسيميائية نهجا مؤازرا وذلك كان نهج القراءة!!

الإشارات المرجعية:

1- شرح المعلقات السبع ، للزوزني ،تقديم:عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة- بيروت ،ط:1،2004 م.
2- محاضرات قديمة مخطوطة لأستاذنا د.وهب رومية - جامعة صنعاء 1991م.ويمكن النظر في مؤلفاته المطبوعة مثل الرحلة في القصيدة الجاهلية في مناقشاته التي تكشف عن روابط متواشجة تربط موضوعات القصيدة الواحدة.